مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

ك . ك

مصرع علي

— ٢ —

أهم الاسباب التي أدت الى مصرعه

هم ضربوا حيدرا (١) ساجدا وحسبك من عار إذ طعن

« أبو العلاء »

« يا معاوية ! انه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، انك لم تجد شيئاً تستعوي به الناس وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : « قتل امامكم مظلوما ، فنحن نطلب بدمه » فاستجاب له سفهاء طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر ، وأخبت له القتل ، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ! ورب متمني أمر وطالبه ، الله — عز وجل — يحول دونه بقدرته ، وربما أوتي المتمني أمنيته ، وفوق أمنيته ! ووالله مالك في واحدة منهما خير !

لئن أخطأت ماترجو إنك لشر العرب حالا في ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى ،

---

(١) يعني علي بن أبي طالب

لا تصبه حتى تستحق من ربك صَلْي النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله ! » « ابن ربعي التميمي »

(١) دم عثمان

« أنطل (١) دم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً ؟ »

بهذه الجملة وأشباهها يرد معاوية على كل من ينشده العدل ، ويطلب اليه « أن يعدل عن فتنته التي أثارها ، ويتقي الله في تفرق جماعة هذه الامة وسفك دمائها بينها »

وبهذا السلاح الماضي الآخذ بالابصار يستميل الناس اليه ويؤلب جموعهم ضد « علي » وأشياع « علي » وأنصاره ، كأنما لا هم له من الدنيا الا الثأر لعثمان وحده ولا غرض له في خلافة أو ملك !

وبهذا المعول القوي يهدم كل دعوة للتوفيق ، ويدك كل صرح للوئام من أساسه ، فتذهب جهود المخلصين والراغبين في حقن دماء المسلمين سدى ، ويسد الطريق سداً على كل خطيب بليغ ، ويرد به على كل حجة ، بالغة ما بلغت من الاصالة والصدق !

فاذا قال له وفد « علي » :

« يا معاوية ! ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة ، وان الله ــ عز وجل ــ محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك ، واني أنشدك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وان تسفك دماءها بينها »

أسرع معاوية فقطع عليه الكلام ، وقال له :

« هل أوصيت بذلك صاحبك ؟ »

فاذا أجابه : « ان صاحبي ليس مثلك ، ان صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر ، في الفضل والدين والسابقة في الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ! »

قال له معاوية : « فيقول ماذا ؟ »

فاذا أجابه بقوله : « يأمرك بتقوى الله عز وجل ، واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من الحق ، فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك »

---

(١) أتذهب دمه هدراً

اوثيك معاوية ، ولم يبق أمامه ما يبرر به احداث هذه الفتنة الشعواء التي أوقد نارها ، وأشعل ضرامها في سبيل الخلافة ، وضحى من أجلها بالألوف من أرواح المسلمين البريئة ، وثم يقذف بهذا الحجر في وجه ناصحه فيقول له :

« وتطل دم عثمان — رضي الله عنه ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً » وبذلك يبرر سلوكه وتمرده على الخليفة « علي » بتظاهره بالغيرة على دم عثمان أن يطل ، ويذهب دون أن يثأر له ، وقد كان بالأمس ، يتباطأ عن حتفه ، وصون حياة صاحبه وهو يستنجده فيصم أذنيه عن سماع دعوته ، ولا يخف لنجدته ، كما يخف الآن للانتقام ممن يزعمهم قاتليه

فاذا توادع القوم يوم صفين واختلفت الرسل فيما بين علي ومعاوية ، كان رده على الوفود شبيهاً برده على سابقيهم من قبل (١)

. فباسم المطالبة بدم عثمان هدر دماء المسلمين ، وباسم المطالبة بدم عثمان اندلعت نيران الفتنة فالتهمت جمهرة من أبطال المسلمين . وقادة الرأي فيهم ، وباسم المطالبة بدم عثمان ستر معاوية وابن العاص وأشياعهما أطماعهم وأغراضهم السياسية وألبوا الجموع الزاخرة على « علي بن أبي طالب ! »

(٢) الدسائس

لم يكتف معاوية وأشياعه بهذا السلاح وحده في محاربة « علي » بل عززوه بأسلحة أخرى أهمها سلاح الدس والإيقاع بين انصار علي ، وليست الحرب بينهما الا سلسلة متصلة الحلقات من دسائس معاوية وابن العاص ، وحسب القارىء أن يعلم أن معاوية لم يترك وسيلة من وسائل الدس للوصول الى اربته والنكاية بخصمه الا سلكها بلا تردد

الا ترى اليه يحاول استمالة « قيس بن سعد » الذي ولاه « علي » على مصر فاذا اخفق في سعيه ويئس من استمالته اليه ، لجأ الى الدس ، فأشاع في الشام ان والي مصر ، على اتفاق معه ، ثم عمل دائباً على نشر هذه الاشاعة وتقويتها حتى يحسبها الناس حقاً لا مراء فيه ، فاذا بلغ علياً ذلك عزله وولى محمد بن بكر مكانه !»

(١) ارجع الى (ج ٦ ص ٣) من كتاب الطبري

بل هو يحاول الايقاع جبرة بين اثنين من ولد علي قطع أحدهما على الآخر فونه ليرد على معاوية : فأراد معاوية ان ينتهز هذه الفرصة للايقاع بينهما فأخفق ؛ ولا ننس حكاية المصاحف التي أوقعت الفرقة في صفوف أنصار علي وفرقتهم شيعاً ولا حكاية ابن العاص وأبي موسى الاشعري ، التي زادت في الانقسام والتفرقة ، فليست كل هذه الآثار ناطقة شاهدة بما للقوم من دهاء ومكر وقدرة على استغلال الظروف والايقاع بين الناس !

(٣) شدة علي

أما شدة علي فقد أشرنا اليها في كلمتنا السابقة ولا نرانا في حاجة الى الاسهاب فيها ، فقد عرفت ان عليا كان لا يتسامح في الحق ولا يقبل فيه لومة لائم ، وكان يحاسب على القطمير ، وقد بدأ عمله بعزل كثير من الولاة قبل ان يستتم له الامر ونحب ان نضيف الى ما أسلفناه مثلا واحدا نجتزىء به عن امثلة كثيرة

قال ابن ابي رافع — وكان خازنا لعلي ، على بيت المال : دخل « علي » يوماً وقد زينت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤة ، من بيت المال قد كان عرفها ، فقال : «من أين لها هذه ؟ لله علي ان اقطع يدها ! »

قال ابن ابي رافع : « فلما رأيت جده في ذلك ، قلت : « أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة اخي ، ومن أين كانت تقدر عليها ، لو لم أعطها » فسكت

فاذا أضفنا الى ذلك اعتماده على نفسه وعدم استشارته سواه من أولي الرأي مما احنقد عليه امثال طلحة والزبير فنقضا بيعته وانضما الى السيدة « عائشة » التي شبت اول نيران الفتنة في موقعة « الجمل » وأضفنا الى ذلك حذق معاوية في اكتساب قلوب الناس واجتذابهم اليه ، وبغض السيدة عائشة — رضي الله عنها — لعلي بعد ما ابداه من الرأي في حادثة الافك ، وذكرنا ما أبداه معاوية من المهارة السياسية في استرداد مصر واخذ الحرمين واليمن اثناء انشغال علي بالخوارج ، نقول : اذا ذكرنا هذه الأسباب ، سهل علينا تفهم هذه الفتنة الشعواء التي انتهت بقتل علي ! وقد كانت — لولا عجائب القدر منتهية بقتل معاوية وابن العاص أيضاً ، ولكنه القدر المحتوم والاجل الذي لا مفر منه قد انتهى ولا راد لقضاء الله ! قالوا :

اجتمع « ابن ملجم » و « والبُرَك بن عبدالله » و « عمرو بن بكر التميمي » فتذاكروا أمر الناس ، وعابوا على ولاتهم ، ثم ذكروا أهل النهر ، فترحموا عليهم ، وقالوا « ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً ، اخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم ، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شرينا انفسنا ، فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا ! »

فقال ابن ملجم : « انا أكفيكم علي بن ابي طالب ! » وكان من أهل مصر ، وقال البُرَك بن عبد الله : « أنا أكفيكم معاوية بن ابي سفيان ! » ، وقال عمرو بن بكر : « انا اكفيكم عمرو بن العاص ! »

فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم فسموها ، واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه عليه ، وأقبل كل رجل منهم الى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب ! »

فأنت ترى ان قتل هؤلاء الزعماء الثلاثة « علي ومعاوية وابن العاص » كان أمراً مقرراً محتوماً ، وان المقدر وحده هو الذي حال دون هذه الخاتمة ، وانقذت تصاريفه العجيبة « معاوية وابن العاص » ولم يمت من بين هؤلاء الا ابن أبي طالب رضي الله عنه (١)

فقد رووا أن « البُرَك بن عبدالله » قعد لمعاوية في الليلة التي ضرب فيها علي ، فلما خرج معاوية ليصلي « الغداة » شد عليه بسيفه فوقع في اليته ، فأخذ فقال : ان عندي خبرا اسرك به ، فان أخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟ قال : نعم ! قال ان أخا لي قتل علياً في مثل هذه الليلة ! قال : فلعله لم يقدر على ذلك ! قال : بلى ! ان عليا يخرج ليس معه من يحرسه ، فأمر به معاوية فقتل ، وبعث معاوية الى طبيبه ، فلما نظر اليه قال : « اختر أحدى خصلتين ، اما أن احمي حديدة فأضعها موضع السيف وأما ان اسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها ، فان ضربتك مسمومة »

(١) قالوا . « ولما انتهى الى عائشة قتل علي — رضى الله عنه — قالت فألقت عصاها ، واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

فقال معاوية أما النار فلا صبر لي عليها ، واما انقطاع الولد فان في « يزيد وعبدالله» ما تقر به عيني » فسقاه تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها [١] »

وكان ذلك كل مالقيه معاوية من الجزاء على هذه الفتنة التي سعر نارها واذكى اوارها

أما عمرو بن العاص فقد جلس له « عمرو بن بكر » تلك الليلة . ولكن ابن العاص لم يخرج تلك الليلة وكان اشتكى بطنه ، فأمر « خارجة ابن حذافة » وكان صاحب شرطه ، فخرج ليصلي فقتله « عمرو بن بكر » فاخذه الناس فانطلقوا به الى عمر يسلمون عليه بالامرة ، فقال « من هذا ؟ » قالوا : « عمرو » قال : « فمن قتلت ! » قالوا : « خارجة بن حذافة » قال : « اما والله يافاسق ما ظننته غيرك ! » فقال عمرو : « اردتني واراد الله خارجه » فقدمه عمرو فقتله ؟

فليتها اذ فدت عمرا بخارجة فدت عليا بما شاءت من البشر

ولكن :

تقفون — والفلك المسخر دائب وتقدرون فتضحك الاقدار !

المساواة

قال فيلسوف المعرة ابو العلاء المعري :

لا يفخرن الهاشمي على فتى من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر [٢]

وقال بعض الظرفاء يندد بالخرافة الشائعة التي يعتقدها بعض الناس ، اذ يحسبون « علي بن ابي طالب » لا يزال الى اليوم حياً ، وانه يطير بناقته فوق السحاب ، فاذا ذكره احدهم القى عليه السلام :

برئت من الخوارج لست منهم من « الحجاب » منهم و« ابن باب»
ومن قوم ، اذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب

---

(١) قالوا : « وأمر معاوية عندئذ بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد ! » (٢) يعني أن علي بن ابي طالب وقنبر خادمه هما في نظر الحق والعدالة سواء.